

التصوف وأثره على الفن الاسلامى

أم د/ هيام مهدى سلامة

أستاذ مساعد - كلية التربية - جامعة حلوان

Abstract

ملخص البحث :

يمثل التصوف جانبا واسعا من التراث الاسلامى باختلاف الازمنة والامكنة ، فهو يبحث عن الجوهر الكامن وراء الاشياء والطبيعة والكون ليصل من خلاله الى الحق المطلق ، لذا فقد كان التصوف وما زال منهجا يتبعه العديد من المسلمين سواء على مستوى الافراد او الجماعات متمثلة فى الطرق الصوفية ، وبالرغم أن التصوف يتسم بالنزعة الدينية الا ان ظهوره فى البداية فى المجتمعات الاسلامية جاء نتيجة معطيات تاريخية حيث ظهر كرد فعل لحياة الترف والبذخ التى سادت المجتمعات الاسلامية بعد الفتوحات الاسلامية ، وفيه سعى المسلمون للتخلص من الغرور والاعجاب بالنفس والخروج من هذا العالم المتغير المحدود بالزمان والمكان الى المطلق والسعادة المطلقة حين يخرج من قصور ذاته وعالمه المحدود الى ذلك المطلق اللامحدود وحينها تتحد روحه بالله ليجد السعادة الحقيقية أو يصبح الانسان الكامل .

وفى بدايات الحضارة الاسلامية وتكونها غلب الدين على نمط الحياة فى المجتمعات الاسلامية ، ثم نشأ التصوف وازدهر ليسود ثقافة تلك المجتمعات منذ القرن الخامس الهجرى ، وقد تأثر الفن بالدين والتصوف على وجه خاص فكما أن التصوف يسعى لتحقيق الشكل الجوهرى والوصول للكمال الانسانى من خلال تجربته الذاتيه الخاصة ، يسعى الفن الاسلامى ايضا للوصول الى الجوهر الخالد الذى يمثل المضمون والحقيقة المطلقة من خلال تجربته الفنية الذاتية ، لذا فالفن والتصوف كلاهما من مفردات عالم الوجدان بشكل اساسى ، وكلاهما تجربة شخصية ذاتية ، ويمكن رصد العلاقة بين التصوف والفنون الاسلامية فى العديد من مجالات الفن كالعمارة والاداب والموسيقى والفنون التشكيلية وهو ما يسعى هذا البحث لرصده ودراسته خاصة فى مجالى العمارة والفنون الزخرفية .

Introduction

مقدمة :

جاءت نشأة الفنون بشكل عام متأثرة بالدين والتعاليم والعقيدة الدينية التى تنظم حياة الناس وتشكل مفاهيمهم ورؤيتهم وثقافتهم ، والتى بدورها تعكس الممارسات الفنية وأشكال وسمات الفنون فى كل عصر ، والفن الاسلامى كسائر الفنون تأثر بشكل مباشر بالدين سواء فى فلسفته أو عناصره الفنية خاصة بالتأثير القوي للدين فى مجتمعاتنا العربية ، ومن الاتجاهات الدينية التى كان لها دورا واضحا فى ثقافة تلك المجتمعات " التصوف " حيث وجد قبولاً كبيراً لدى الكثير ، وأصبح له معتقنيه ومدارسه وأنواعه .

وقد تشابه الفكر الصوفي والفن في الغاية ، فكلاهما يرنو إلى صفاء النفس ونقاؤها ، لذلك فقد وجدت الافكار الصوفية مردودا لها في الاعمال الفنية ، وتتضح معالمها في العديد من أشكال الفنون وهو ما يهتم البحث بدراسته وتحليله .

مشكلة البحث : Statement of problem

كيف أثر الفكر الصوفي على أشكال الفنون الاسلامية المختلفة خاصة العمارة والفنون الزخرفية المعنى بها الدراسة ؟

هدف البحث : Objectives

- تحديد أوجه السمات المشتركة بين الصوفي والفنان .
- توضيح أثر التصوف كنزعة دينية على الفن كإبداع بشري مادي .

فروض البحث : Research Hypothesis

بما أن الفن الاسلامي تأثر بشكل واضح ومباشر بالتعاليم الدينية والفلسفة الاسلامية ، ولأن التصوف أحد أهم الاتجاهات الدينية الواسعة الانتشار فهناك حتمية على تأثر أشكال الفنون المختلفة بالفكر الصوفي .

منهج البحث : Methodology

تعتمد الدراسة على المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي التحليلي .

الإطار النظري : Theoretical framework

نشأة ومفهوم التصوف :

تعددت الآراء والتحليلات المختلفة التي تحدد نشأة التصوف الاسلامي ، فبعض المستشرقين ردوا نشأة التصوف الاسلامي إلى دوافع وتأثيرات فارسية وهندية وأفلاطونية محدثة وإلى أسباب مسيحية وهناك من رأى أن التصوف أمر طبيعي ظهر ونما ضمن الاسلام نفسه ولا يدين إلا بالقليل لمعطيات الثقافات الاجنبية ، وعلى الرغم من خضوع التصوف لإشعاعات فكرية صادرة عن الحياة الزهدية الصوفية والفكرية للمسيحية الشرقية ، فإن النتائج كان نسيجا إسلاميا يتبع طرازا إسلاميا متميزا ومن ثم فإن نظاما صوفيا متقنا نشأ وتبلور بصورة ذاتية داخل الاسلام .

وعلى جانب آخر هناك من الباحثين الذين قاوموا القول بالتأثيرات الأجنبية كعوامل منشئة للزهد ومنهم ماسينيون والذي يقول (إن في القرآن البذور الحقيقية للتصوف عامة وهذه البذور كقيلة وحدها بتميمته في استقلال عن أي غذاء أجنبي) ، وقد انتهى ماسينيون في دراسته (بحث في نشأة المصطلح الصوفي في الاسلام) أن مصادر

المصطلحات الصوفية أربعة : الاول القرآن وهو أهمها ،والثانى العلوم العربية الاسلامية كالحديث والفقہ ،
والثالث : مصطلحات المتكلمين الاوائل ، والرابع : اللغة العلمية التى تكونت فى الشرق فى القرون الستة
المسيحية الاولى كاليونانية والفارسية وغيرها وأصبحت لغة العلوم والفلسفة(2) .

أما الرأى الثالث فهو حصيلة نضج الدراسات الخاصة بالتصوف الاسلامى ، وأتباعه يرون أن الحركة الروحية
فى الاسلام من العمق والتعقيد مما لا يجيز ربطها بجهة دون أخرى أو بعامل واحد فحسب ، ويرى أن هناك
عوامل مختلفة ساعدت مجتمعة على تشكيل المذهب الصوفى كالثورات والفتن والحروب الداخلية التى قامت
خلال العقود الاولى من تاريخ الاسلام كحركة الفتنة الكبرى وحروب الجمل وصفين والنهروان ومأساة كربلاء ،
كل ذلك أثر فى الصحابة ودفعهم إلى الاعتزال السياسى والرغبة عن الدنيا والانقطاع عن زخرفها والخلود إلى
حياة النسك والزهد والعبادة(2) . ولهذه الاسباب ظهرت حركة الزهد بمثابة صيحة نقد إيجابية إزاء ما استشرى من
فساد وفتن تريد تصحيح الواقع والعودة بالمجتمع إلى مثله وقيمه ، ثم تطورت التجربة الروحية للزهاد والنسك
وبلغت مداها وذروتها عند رجال ظهوروا فى نهاية المائة الثانية للهجرة عُرفوا باسم مستحدث مخصوص وهو
التصوف(2) .

وانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف
واشتهر هذا الاسم لهؤلاء قبل المائتين من الهجرة وأول من تسمى بهذا الاسم ظهوروا فى الكوفة ، وفى هذه الفترة
بلغ اهتمام المسلمين بترجمة التراث الاجنبى إلى العربية مداه من خلال الاختلاط الحضارى الذى تلى عصر
الفتوحات الكبرى وكان لتلك المعارف الاجنبية أثرها العميق والفعال سلبا وإيجابا فى جوانب الفكر الاسلامى
المتعددة ، هكذا بدأت الحركة الروحية فى الاسلام تستوعب أنظارا وأفكارا فلسفية ودينية استحدثتها من عناصر
أجنبية متباينة لولا جهود أكابر الصوفية من أهل السنة ممن تصدوا للتصوف السلبى الهادم ومن هنا بدأ غياب
مصطلح الزهد عنوانا للحركة الروحية فى الاسلام وظهور لفظ التصوف بديلا له ، وهكذا تحول الامر من زهد
وعبادة إلى نظريات فلسفية ذات طابع صوفى(2) .

مفهوم التصوف :

• التصوف فى اللغة :

كلمة صوفية فى المصباح المنير هى كلمة مولدة لا يُشهد لها قياس ولا اشتقاق فى اللغة العربية (المصباح المنير
161/1) وعليه فإن كلمة التصوف محدثة وغير معروفة عند العرب الاوائل ولا فى عصر الرسول صلى الله عليه
وسلم والصحابة .

• أصل الكلمة واشتقاقها :

اختلف الباحثون في التصوف في أصل الكلمة واشتقاقها ونسبتها اختلافا كثيرا فمنهم من نسب أصل الصوفية إلى أهل الصُفَّة وهم جماعة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا ينزلون في مكان خلف الحجرات في المسجد النبوى وكانوا متفرغين للعبادة وهم فقراء المهاجرين إلا أن الاشتقاق اللغوى لا يستقيم لأن النسبة إلى أهل الصُفَّة صُفَى وليس صوفى .

وذهب آخرون أن صوفى منسوبة إلى (صوفة) وهو اسم رجل كان قد انفرد بخدمة الله عند البيت الحرام اسمه (الغوث بن مر) فانتسب الصوفية إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله . وهناك من ينسب الصوفى إلى (سوفيا) اليونانية ومعناها الحكمة ورأيهم في ذلك لانهم كانوا طالبين للحكمة حريصين عليها وعُريت الكلمة فأصبحت صوفية ، ويرى آخرون أن الصوفى نسبة إلى لبس الصوف وهو الرأى الذى انعقد عليه اجماع آراء المختصين فى الدراسات الصوفية ومنهم ابن الجوزى وابن تيمية وابن خلدون وحجتهم فى ذلك أن لبس الصوف تنبئ عن تقلبهم من الدنيا وزهدهم وأن لبس الصوف أمر ظاهر والحكم بالظاهر أسلم وأولى والقول بأنهم صوفية للبسهم الصوف أبعد عن الرياء وأقرب للتواضع⁽¹⁰⁾ . ويستقيم هذا الرأى مع الاستحقاق اللغوى من حيث النسبة فيقال تصوف إذا لبس الصوف ثم تصرف الناس فى ذلك اللقب بالاشتقاق منه فقبل متصوف وصوفى والطريقة تصوف والجماعة متصوفة وصوفية .

• تعريف التصوف :

من الصعوبة بمكان تحديد تعريف محدد للتصوف ، وذلك لأنها إدراك ذاتى لا يمكن تعميمه مما لا يمكن الاطلاع عليها أى نقلها لإنسان آخر ، فهم يدركون أن الغاية التى يتجهون إلى تحصيلها من الطريق الصوفى ليست مما يقع فى نطاق العلم أو الوصف بالألفاظ ، فليس لغير من يتذوق أحوال الصوفية أن يفهم هذه الاحوال ، وليس لهم أنفسهم إلا أن يتذوقوها ، أما الوصف بالألفاظ فيقتصر دون التعبير عن هدف الصوفى ، ويقول الغزالي التصوف أمرٌ باطن لا يُطلع عليه ، وهو ما عبر عنه الصوفية بقولهم من عرف ربه كلَّ لسانه⁽²⁾ ، ويقول ابن القيم التصوف هو الخُلُق ، ويقول ابن خلدون هو حسن رعاية الأدب مع الله فى الاعمال الظاهرة والباطنة بالوقوف عند حدوده مراقبا خفايا القلوب . ولخط الناس بين الزاهد والعابد والصوفى حاول ابن سينا أن يُفِرِّق بينهم فيقول إن المُعرِض عن متاع الدنيا وطيباتها يُخَصَّ باسم الزاهد ، والمواظب على فعل العبادات يُخَصَّ باسم العابد ، والمنصرف بفكره إلى قدس الجيروت مستديما لشروق نور الحق فى سره يُخَصَّ باسم العارف ، والعارف عند ابن سينا هو الصوفى .

وهكذا صار التصوف مذهباً فى الوجود ومنهجاً فى المعرفة ، وهو ما نجده فى أقوال بعضهم ممن نقلوا التصوف من مضمون العبادة والزهد إلى أنظار فلسفية ومذاهب فى طبيعة الوجود وأسباب المعرفة ومنابعها ، ويقول أبو بكر الكتاتنى التصوف صفاء ومشاهدة فالتصوف باعتباره مذهباً فى المعرفة له وسيلته وينتهى إلى غاية ، أما

الوسيلة فهي الصفاء وأما الغاية فهي المشاهدة ، فالوسيلة تصفى القلب والغاية هي الوصول إلى معرفة الله بتحصيل صفات الكمال والقوى الروحية التي تؤدي إلى الوصول إلى الله (2) .

منهج الصوفية :

نزع الصوفية إلى القول بأن المعرفة اليقينية الحقة لا تأتي إلا عن طريق الكشف والذوق والإلهام وما ينفثه البارئ تعالى في قلب المؤمن الذي بلغ درجة المكاشفة ، وهكذا كان الصوفية يرون أن معرفة الحقائق على ما هي عليه طريقها الكشف والإلهام الذي ينتهي إلى جلاء البصيرة وارتفاع الغطاء حتى تتضح للإنسان حقائق الأشياء ، هذا بالنسبة للصوفية العمليين الذين جعلوا تحقيق الغاية منوطا باتباع السلوك والإلتزام بمجموعة القواعد والرسوم التي اصطلموها عليها (بالطريقة) وجعلوا انكشاف الحقائق ثمرة توافق بين الخلوة والزهد ومراتب السلوك من جهة ، والالتزام بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله من جهة أخرى .

أما بالنسبة للصوفية النظريين أو الفلاسفة المتصوفين فإن عملية الاشرار والوصول إلى كنه الأشياء وحقائق الأمور وسيلتها الرياضة العقلية ، فسييلهم مختلف إذ هو مبنى في جملته على النظر الفلسفي والبحث على طبع يكتسبه الإنسان يمكنه ويدفعه إلى التأمل والروية والذكر والتشوق إلى الاستنباط ، فإذا تمكنت النفس أن تتجاوز في المعرفة حدود البدن الضيقة كما تتجاوز حدود العالم المحسوس تعلمت الحقائق والأسرار وذلك إذا تجرد صاحبها من الماديات ، فيقول الكندي (والنفس بسيطة جوهرها من جوهر الله وهي نور من نوره) (2) .

ويتبنى الفكر الصوفى فكرة فناء وجود العبد المعنوى في بحر الوجود المطلق ، وهو يعنى تسامى الوجود الإنسانى المحدود إلى سماء الوجود الإلهى اللامحدود بدون أن تُحدِث هذه العملية الغريبة الفائقة أى تغيير في حقيقة الذات الإلهية المطلقة وكمالها اللانهائى ، وهو إذا راعى جانب التنزيه يشاهد كل شئ في الله ولكنه في الوقت نفسه يعتبر الله فوق كل شئ .

أما مذهب وحدة الوجود فيرى أنصاره الوجود وجودا روحانيا خالصا ، وبه يحاولون التوفيق بل الجمع بين الواحد والمتعدد وربط اللانهائى بالنهائى والمطلق بالنسبى المتغير ، ويتضمن هذا المذهب إنكار العالم الظاهر وعدم الاعتراف إلا بوجود حقيقى واحد هو الله (الحق) أما الخلقُ فعلامات وآثار وتجليات له ، والنفس تعود إلى الاتحاد بالله الذى صدرت عنه بالصدور المتنامى (2) .

التصوف والتذوق الجمالى :

يتربى الصوفى على تذوق الجمال فهو يبحث عن الجمال ، جمال الخالق وتجليات المطلق فى المخلوق ، فالبصر يعشق المظهر الجميل ، والقلب يعشق السمى الجميل ، كما تعشق الأذن الصوت الجميل واللفظ الجميل والموسيقى الجميلة ولكنها عندهم ليست مطلوبة لذاتها ، بل لها وظيفة مستقلة يعبر عنها بمقصد المقاصد فى درس جماليات التصوف ، ذلك إن للنظر الجمالى وظيفة تربوية تسعف الناظر إلى الجمال وفق مسلكهم على

الترقى سلم الاحوال والمقامات ، وبهذا خرجوا من عبثية النظر إلى الجمال لأنه جمال ، ذلك أنهم ينظرون إليه فى دلالاته على أنه مانع الجمال ، والجمال عندهم فى عباراته وإشاراتهِ وصورهِ مرابا الجمال المطلق ، وقد اهتم الأدياء والفلاسفة والفنانون بدراسة العلاقة بين التصوف والجمال الفنى سواء الجمال الحى الذى نشعر به كالموسيقى أو المرئى كالخط والعمارة والزخرفة(14).

إن المؤمن الذى يضع نصب عينيه الحديث الشريف (إن الله جميلٌ يحب الجمال) ويدرك معناه هو الذى يعرف قيمة هذه الفنون ويدرك ما ورائها من المعانى الروحية والقيم الاسلامية والمشاعر الصوفية ، فصناعة الجمال تعبر عن الجمال الداخلى للفنان وعن طهره القلبى وصفائه الروحى بعد أن يتخلص من دواعى الغرور والاعجاب بالنفس ويدرك أنه ينقل بفنه صورة من صور إبداع الخالق فى كونه وهو ما يتطلب تربية صوفية عميقة تفجر ينباع الإبداع فى مشاعر هذا الفنان(15). وقد تميز تفاعل الصوفية مع الجمال ، فغايتهم هى إدراك الجمال الحقيقى ، فلا يقف إحساسهم بالجمال عند حدود العالم بل تسمو حواسهم إلى عالم نورانى مقدس تتمثل فيه كل القيم الفاضلة والأبدية الخالدة ، وإزاء هذا الجمال الإلهى المنبثق عن الذات الإلهية يتلاشى كل جمال أرضى ، ويرى بعض الصوفية أن الصورة الجميلة المحسوسة المشاهدة على الأرض إنما تفيض عن جمال الذات الإلهية فيستغرقون فى تأمل هذه الصورة الجزئية لا إعجابا بها بل لأنها تدل على جمال الحقيقة الإلهية ويشير إليها(9) .

التصوف والفن :

التصوف والفن يستحاثان قوانا على التسامى ، فالمتصوف الحقيقى يعبر دائما عما يجول فى ذهنه كما الفنان ، فكلاهما يحاول تجربة شخصية فردية وكلاهما يحاول الانسان بهما أن يرحل فى عالم متغير ومحاصر بحدود الزمان والمكان بذاتيته إلى السعادة المطلقة ليعيش تجربته الفنية أو الصوفية والتي تجتمع فيها مفاهيم روحية وعناصر شكلية مشتركة تعمل للوصول فى أداها إلى تحقيق الشكل الجوهرى الذى يمثل المضمون دون ذلك الشكل السطحى الذى يعبر عن عالم الظواهر القابلة للتحويل والتغير ، المضمون إذن هو الحقيقة الميتافيزيقية الخالدة المتمثلة فى الشكل الجوهرى ، والجانب الحسى هنا يجتمع مع الجانب العقلى فى توليد اللذة الجمالية وتدوق العمل الفنى أو التجربة الصوفية ليترك الأثر الملموس على الأداء التكوينى والروحي(12) .

إن الإلهام عند الفنان يقابله التجلى أو الكشف عند الصوفى ، ولكن تلك الحالة الوجدانية عند الصوفى تكون أشد وأقوى منه لدى الفنان ، وعندما يصل ذروة الاستغراق فإنه يبلغ الفناء التام حيث يمتزج بعالم الحقيقة ويقترّب من المطلق حيث النقاء والنور وهى غاية الصوفى ومنتهى طلبه ، ويأتى الفرق بين الرؤية الفنية والرؤية الصوفية فى درجة تسامى كل منهما ، فبينما يُفترض فى التجربة الصوفية بلوغ حال الفناء فى العالم والذوبان فيه لا يُفترض فى التجربة الفنية بلوغ هذا المجال إلا عند بعض الشعراء الذين لديهم رؤى صوفية كالحلاج ورابعة ، ويُعتبر الاسلوب التجريدى فى الفن هو أحد التأثيرات الصوفية فى رؤية الفنان حيث أن الأشياء من خلال تجريدات

شكلية ولونية وخطية على سطح اللوحة . لذلك وصف البعض أن الرسم التجريدي هو استسلام للاشئ ، فهو عالم من الرموز الغامضة⁽¹³⁾ ، وبذلك فإن الصوفى والفنان كلاهما يحاول أن يصور فى العالم المحسوس الجوانب الغامضة التى يشعر بها وجدانه ، إنه يجسم على أرض الواقع المشهود الأوجه الخفية للأشياء محاولا إظهار البواطن أى كشف الاسرار الكامنة داخل الصور فى سياق سعيه الحثيث لمعرفة الحقيقة ، ويعتبر الصوفية الفن وسيلة للتطهير وتحرر الروح وارتباطها بالله تعالى وهو هدف الصوفية تخلص الروح من التعلق بكل ما هو مادي .

أثر التصوف على الفن الإسلامى :

يرتبط الفن الإسلامى بالرؤية الكونية التى جاء بها الإسلام ، ونظرة المسلم برؤية فلسفية للكون ذات أصول فلسفية صوفية يغفلها الطابع الروحى الذى يوحد الفنون الإسلاميه أينما كانت ، فإذا نظرنا للفن الإسلامى فى الهند أو مصر أو تونس مثلا نشعر أننا فى نفس العالم الروحى ذاته وإن اختلفت الأقطار ، ورغم التنوع الموجود فيه من حيث التفاصيل إلا أن المضمون الوجدانى واحد ، فالفن الإسلامى ليس مجرد حجارة تُرص أو ريشة ترسم إنما يعكس جانبا وجدانيا هو الأساس ما يضيف تمايزا خاصا لهذا الفن ويكسبه صفة الوحدة على اختلاف عناصره وأماكنه و الأزمنة المختلفة التى نشأ بها ويعكس الفكر الذى أنتج هذا الفن والذى كان للتصوف أثرا واضحا فيه من حيث التفكير والبحث وراء الماديات عن الحقيقة المطلقة ، وبهذه النظرة الصوفية يأتى الفن الإسلامى نتيجة تحلى الوحدة على صحيفة الكثرة وتعلق كل هذه الكثرات بالواحد والصفات الثبوتية للوجود أو الخلق التى يؤكد عليها القرآن⁽⁸⁾ .

إن ما يقدمه الفن الإسلامى ليس تقليدا لنماذج الطبيعة الخارجية بل هو انعكاس لمبادئها ، لأن الفن الإسلامى لم يكن ثمرة العلوم البحتة العقلية والتجريبية فحسب بل كان أيضا نتيجة البعد الروحى للإسلام ، فقد ترى العمارة الإسلاميه فى تناسبها وتخطيطها وزخارفها من أبداع نماذج العمائر الفنية ، ولكن من يدرس الفلسفة الروحيه التى انبثقت منها تلك العمارة هو من يدرك القيمة الجمالية الحقيقية وراء ذلك الفن والابداع وراء وحدة هذا الفن مهما اختلفت مفرداته .

وكان التأثير الصوفى قويا فى الفن الإسلامى ، فالخلفية الدينية للعديد من رسامى المنمنمات والموسيقيين فى المماليك الصوفية والعثمانية والمغولية كانت صوفية الفكر⁽⁸⁾ ، وقد أثر الصوفيون فى إيجاد الفنون الحرفية التى كان ينتجها المجتمع الإسلامى بأكمله فالمدرسة الصوفية تؤمن بالممارسة السلوكية كطريقة ومنهج للوصول إلى كشف الحقائق ، فكانت ممارسة الفنون إحدى خصائصها التى ساعدتها على توضيح موقفها الجمالى والفنى ، فعدد كبير من الصوفية لم يكونوا مجرد نسائك زهاد ، بل شعراء يتغنون بالمحبة الإلهية كالحلاج وذو النون المصرى ورابعة العدوية وجلال الدين الرومى ، وقد ألهم التصوف أيضا تقليدا كاملا فى الشعر والموسيقى فى دوائر أكثر بساطة من الدوائر العالية الثقافة ولدى العامة وهذا ما يفسر لنا انتشار التصوف فى العالم الإسلامى

، فقد وجدوا التصوف عن طريق الفن طريقا إلى قلوب العامة ، كما قدّم قراءة رمزية للفن ومدى علاقته الوجودية بالإنسان .

1. أثر فلسفة الفكر الصوفي على الفنون الزخرفية الإسلامية :

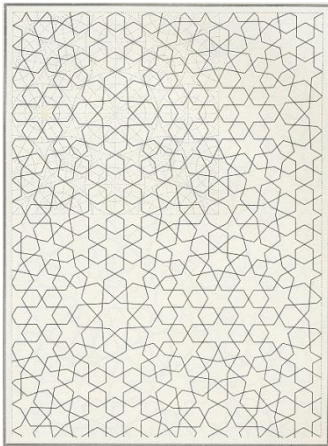
من خلال دراسة مفاهيم التصوف وثقافة الفكر الصوفي نجد آثارا واضحة لانعكاس المفاهيم الصوفية على الفن الإسلامي من خلال تجلّي قدرته على إضفاء طابع مميز مرتبط بتوجيهه فكري ووجداني ، فالفنان المسلم بتأثره بالصوفية يسعى إلى المعاني الكاملة وراء الأشياء حيث المعنى الإلهي . فالفن الإسلامي لا يستكف من



(صورة 1) : جمالية التجريد في الفن الإسلامي
تسمو بالأشكال فوق ماديتها .. حشوة باب من
العصر الفاطمي.

الاقتباس من جماليات التصوف الذي يُعد رافدا هاما من روافد الفن الإسلامي الذي اهتم بالجواهر والبحث عن المطلق ، فالفنان المسلم عندما يُصوّر الأشكال التي تحمل صور كائنات حية فإنه يصورها بطريقة تجريدية تجعلها متقاربة في الحجم والأهمية وتتجلّى فيها العناية والدقة في التنفيذ (صورة 1) ، وذلك لإيمان الفنان بأن لها نفسا في الوجود وهي على تنوعها وكثرتها تجد قدرة خالقها الواحد ، فالاهتمام بالكثرة والتنوع ضمن الوحدة إنعكاس لفكرة الوجود في الفكر الإسلامي ، فالموجودات كثيرة وهي تحصل وجودها من فيض جوهر الله فيحصل كل موجود على قسطه الذي له من الوجود⁽⁷⁾ .

إن طريقة تشكيل العناصر والألوان والخطوط تسهم في توسيع نطاق المعاني الممكنة لها خارجيا بإشاراتها إلى أصولها في العالم المادي وداخليا في علاقاتها الفنية ورمزيتها ، فهي بالإضافة إلى جمالياتها



(صورة 2) : الزخارف الهندسية مثلت قمة
التجريد الذي يعكس قيم التأمل للوصول
للحقيقة المطلقة

الظاهرة تعمل كوسائط لنقل أفكار المسلم كونها توظف الأشكال بطريقة لا تفصلها عن معانيها الواقعية بقدر ما تضاعف نطاق المعاني الممكنة لها حسب طرق رسمها ، فالزخارف الإسلامية المختلفة سواء نباتية أو هندسية أو حيوانية أو خطية نجد فيها منطلقا عقليا يقوم على أساس رياضي هندسي خاصة الزخارف الهندسية إلا أنها تعكس مفاهيم صوفية خاصة كقيم التأمل للوصول للحقيقة المطلقة ، فهذه الوحدات الزخرفية تُعد سلسلة مترابطة ذات بناءات غاية في الدقة ، وهي إنما تؤكد فكرة

أساسية تفصح عن الحقيقة الإلهية الماورائية ذات الأبعاد التأملية الاستبصارية العقلية وفق تجليات هذا النمط من أنماط الزخرفة ذات المنطق الرياضي المجرد⁽⁷⁾ (صورة 2) .

وبالرغم أن الزخارف الهندسية هي ثمرة تفكير رياضي إلا أن الفكر الصوفي بها جليا من خلال المعاني الروحية التي تعكسها ، فخطوطها التي تنطلق مندفعة من مركز لتؤلف تكوينات تتكاثر وتتزايد متفرقة مرة ومجموعة مرة وكأنها مجموعة من الصوفية يؤدون رقصة المولوية حين يرقصون بأشكال دائرية على أصوات الموسيقى الصوفية فيتجه الصوفيون بهذه الحركات إلى التحرر من الدنيا ومشاكلها والتقرب إلى الله بذهن صافٍ فتنساب روحه داخل عالم آخر يخلو من الهموم والحياة المادية ويرتفع بمشاعره ووجدانه إلى درجة الصفاء الذهني فيخرج من مشاعره الدنيوية وحياته الفانية إلى الوجود الإلهي ، كما يتجلى التأثير الصوفي على الفن الإسلامي من خلال سعى الفنان المسلم إلى الكشف عن الجوهر الكوني المتصل والمتربط والذي لا يقبل التجزئة ولا التباين ، وهذا السعى يتجسد في الزخارف فنجد في الأطباق النجمية الصورة الإشعاعية ونرى الكون بما فيه يدور في فلك واحد منشأة ومنتهاه الله (صورة 3) .



(صورة 3) : الزخارف الهندسية تؤلف تكوينات دائرية إشعاعية تدور حول نفسها وحول مركزها في صورة تعكس الكون بما يدور فيه متأثرة بالفكر الصوفي في البحث عن الجوهر الخالد وهو ما يسعى إليه المولوية من خلال الأداء الحركي في رقصهم

كذلك الحال في الزخارف النباتية والتي تنتشر برشاقة وليونة في إيقاعات متكررة فتمنح المتأمل إحساسا بالمطلق عبر استغراقات إيقاعية لا نهائية متأثرة بالحس الغنائى الصوفي ، كما يتجلى الفكر الصوفي في نتاجات الفنان المسلم من خلال تكراره للوحدات الزخرفية ، فالتكرار نابع من ذهنية الفنان المسلم والذي سعد فيه الفكر الصوفي ودعاه إلى إنكار الذات ودفعه إلى الاتصال بالمطلق ، فالتكرار هو مظهر من مظاهر الوجود الصوفي (صورة 4) .



(صورة 4) : تتجلى جماليات الفكر الصوفي من خلال الإيقاعات المتكررة اللانهائية للزخارف النباتية والتي تعكس الحقيقة الماورائية وتعلو خارج حدود المكان والزمان

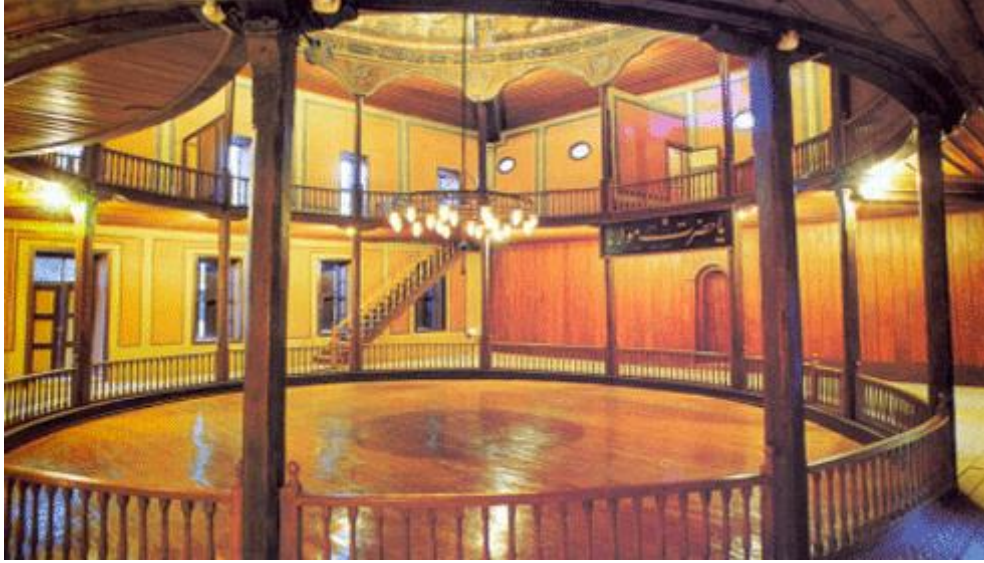
إن الفنان المسلم بمواصفاته الروحية الصوفية يمتلك رؤيته الاستطاقية التي تتجلى عبر تكويناته الفنية وعناصرها خطأ ولونا وشكلاً وملماً وإيقاعاً واتزاناً ، وهذه الرؤية لا تحاكي الطبيعة محاكاة واقعية إنما تغوص في أعماقها إلى ما وراء الطبيعة المادية ، فالفنان المسلم عندما يموه أشكاله محولاً إياها من التجسيد إلى أشكال مسطحة ذات بعدين إنما يبتعد عن فعل الخلق ومضاهاة الله في خلقه مؤكداً الفعل التجريدي مخفياً من حدة الإحساس بالثقل الذي يلازم التكوينات المجسمة ، كذلك الصوفي عندما يتحرر من عبء كل معالم الوسط الخارجي وهو بمنأى عن ماديات الحياة الدنيا وحسياتها زاهداً بها فيتجاوز مادية وسطه الخارجي ومادية جسمه أثناء تجلياته متوسماً بطاقاته الروحية التي تُعد واسطته إلى الله ، ومثلما تتصاعد التجربة الروحية لدى الصوفي طلباً للقائه بالذات الإلهية يشعر الفنان المسلم بانغماساته روحياً في ثنايا كيفيات تجربته الفنية عبر نشوة صوفية يتحد فيها الذاتي بالموضوعي فتسمو الذات لديه إلى ذات عارفة لتتوحد مع موضوعها ، فالرسم لدى الفنان المسلم يُعد وسيلة لغاية روحية عظيمة يصل من خلالها الفنان نحو الحقيقة الإلهية ، وهكذا الحال عبر تكراراته لوحده الزخرفية فكأنما يمنحها بذلك بعداً مطلقاً عبر وحدات نسقية توحى باللانهاية⁽⁷⁾ ، ومن الوحدات الزخرفية التي تُعد من أبرز آثار التصوف على الفن الإسلامي تأتي زخرفة الشرافة ، فهي ابتكار صوفي محض ، وهي نوع من الرسم الفني يوضع على جوانب لوح كتابة القرآن الكريم ، وهي زخرفة احتفالية ولوحة تشكيلية تصوغها يد الشيخ أو الطالب بالخطوط والألوان والغرض منها إعلام الطالب أنه بلغ مقدار معيناً من حفظ القرآن الكريم يحتفل بعده بزخرفة اللوح .

2. أثر فلسفة الفكر الصوفي على العمارة الإسلامية :

يظهر أثر فلسفة الفكر الصوفي في العمارة الإسلامية على العمارة الدينية بشكل خاص والتي تعكس بعداً روحانياً وثيق الصلة بالتصوف ، فخلال العصور الإسلامية المتأخرة من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجري أصبح التصوف الطرقي ثقافة سائدة وتبارى الحكام في تأسيس المساجد والخنقاوات والتكايا والأضرحة إرضاءً لشيوخ الطرق الصوفية الذين شكلوا قوة عظمى اتخذوا منها سنداً لحكوماتهم⁽¹¹⁾ ، وكانت التكايا أبرز أثر للتصوف على فن العمارة الإسلامية ، وكانت التكية تضم بشكل دائم أو مؤقت عائلة الشيخ وأتباعه ومريديه وأحياناً الحجاج وعابري السبيل ، وتجلت مظاهر البركات والصلوات والتأمل والرقص والموسيقى في أبنية هذه التكايا حيث نظمت الفضاءات داخل التكية وزُخرفت لتتناسب الطقوس الاحتفالية لكل تكية ، واعتمد طراز معمار التكية وحجمه على الممارسات الاحتفالية وموقعها داخل التكية وكذلك على صيت الشيخ وقدرته على توفير المال ، وقد قام فنانون التكايا وخطاطوها بعكس أفكارهم وعقائدهم في اللوحات والزخارف التي استعملوا فيها نصوصاً عربية مقدسة يُذكر فيها اسم الله أو الأنبياء والأولياء بالإضافة إلى زخارف من الطبيعة وخاصة الزهور وأحياناً الطيور والأسود ، وقد نُقش كل ذلك بمهارة وحرفة عالية على جوانب التكايا⁽¹⁾ .

وتخطيط التكايا يشبه المسرح المصغر أو قاعة رقص ، ففي الوسط تماماً أرضية ملساء ولامعة يحيط بها حاجز بارتفاع ما يقرب من ثلاثة أقدام ، وعلى جوانبها قاعات مستديرة تفصل بينها أعمدة إسطوانية تستضيف

المشاهدين ، أما الفرقة الموسيقية فتجلس في آخر القاعة مقابل المحراب المزخرف ومن أمثلة التكايا في مصر تكية المولوية (٧١٥هـ - ١٣٢١) ، والتي تقع في شارع السيوفية بالقرب من جامعى السلطان حسن والرفاعى بالقاهرة ويطلق عليها أيضا مدرسة وقبة سنقر السعدى بالسيوفية نسبةً للامير سنقر السعدى وزير الداخلية فى عهد الناصر محمد ابن قلاوون الذى بناها ، وقد ذكرها المقرئى كرىاط أو ملجأ للسيدات الارامل ، الا انه بعد احتلال العثمانيين قاموا بدم الملجأ وأقاموا فوقه مباشرة السماع خانة ، وهى قاعة مستديرة تجمع بين المذهبيين الشيعى والسنى ، فهى ترتكز على 12 عمود عليها أسماء الائمة الاثنى عشر حسب المذهب الشيعى ، وثمانية نوافذ وثمانى وحدات زخرفية حيث أبواب الجنة ثمانية وفقا للفكر السنى(4) (صورة 5) .



(صورة 5) : تكية المولوية بالقاهرة ويظهر مسرح السمع خانة المستدير والمعد لرقص المولوية

وعمارة التكية عبارة عن قاعة مربعة تعلوها قبة مركزية كبيرة، وبها أربعة أضرحة (توابيت)، أكبرها بالقرب من المحراب، ويزينها طراز من النقوش الكتابية، يشمل اسم مشيدها الأمير شمس الدين سنقر السعدى ، ومسرح السمع خانة الدائرى الخشبى معد ليتلائم مع الرقص الدائرى للمولوية ، وتستند القبة إلى الاعمدة الخشبية الاثنا عشر ، ويشغل الطابق الثانى من السمع خانة البناوير وهى الاماكن المخصصة للمشاهدين وهى من الخشب أيضا ويفصل بين أماكن السيدات والرجال فواصل خشبية (صورة 6) .



(صورة 6) : الطابق الثانى للتكية ويضم البناوير المخصصة للمشاهدين

وتزدان القبة من الداخل بأيات قرآنية في مركزها تحيط بها زخرفة على هيئة قرص الشمس وعلى محيط القبة زخارف الطيور. (صورة 7). ويُعد طقس السماع أو رقص المولوية من أشهر فنون الطريقة المولوية وهو طقس له



(صورة 7) : زخارف قبة التكية من الداخل

رمزيته ، فالدورات الثلاثة حول باحة الرقص ترمز الى المراحل الثلاث في التقرب إلى الله ، وهي طريق العلم والطريق إلى الرؤية والطريق المؤدى إلى الوصال ، ودائرة الراقصين تقسم على نصفي دائرة ،يمثل أحدهما قوس النزول أو انغماس الروح في المادة ، ويمثل الآخر قوس الصعود ، أي صعود الروح إلى بارئها ، ويمثل دوران الشيخ حول مركز الدائرة الشمس وشعاعها ، أما دوران الدراويش حول الباحة فتمثل القانون الكوني ودوران الكواكب حول الشمس وحول مركزها(4) ، وتنعكس جماليات الفكر الصوفي تلك بشكل جلي في زخارف القبة في العمارة الدينية ، فالقبة مركز إشعاعي حيث يكون مركزها هو مصدر الأشعة الخارجية منها سواء خطأً أو رسماً فتتركز عناصر الشكل في مركزها من الداخل للخارج ، وهذا النظام الدائري يمنحنا رؤية كلية أوسع للصورة وهو من منظور الصوفية يعكس إحاطة الله بكل شيء ، كما أن الخط الدائري الذي ينطلق من مركز القبة طبقاً لنظام حلقي يمنحنا إحساساً بالديمومة إذ أن نقطة الانطلاق في كل حلقة دائرية تبدأ من نقطة ما لتنتهي إلى ذات النقطة لتنتقل من جديد من ذات النقطة إلى ما لا نهاية عبر سلسلة توحى بالحركة حتى تنتهي حيث مركز القبة فتبارك الله الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه يرجع الخلق ذاته (صورة 8) ، ونتيجة لهذا التداخل الحلقي



ب - المركزية في زخارف القبة في العمارة الدينية



(صورة 8) : انعكاس المنظور الفلسفي للفكر الصوفي على العمارة الإسلامية :
أ - المركزية في رقص المولوية

للاشكال الدائرية المترابطة يُؤد لدى المتأمل إحساساً بتعاقبية حركية تفضى إلى شعور بالديمومة المطلقة(7) والتي تعكس في رمزياتها القانون الكوني كما هو الحال في رمزية الحركة الدائرية للرقص المولوى .
وتعد الشرفات أو العرائس أعلى عمارة المسجد أحد آثار الفكر الصوفى على العمارة الدينية ، حيث تعكس تلك الوحدات الزخرفية فى تراسها وتجاورها وتلاحمها أشكال المصلين الواقفين فى صفوف مترابطة متلاحمين دون أن يفرق بينهم جنس أو لون أو مستوى اجتماعى فهم سواء عند الرحمن تجمعهم الطاعة ويقويهم التلاحم فى إشارة إلى وحدتهم وأخوتهم وهو ما يُعبّر عنه أيضا فى وضع الوقوف فى بداية الرقص المولوى (صورة 9) .



(صورة 9) : شرفات المساجد زخرفة صوفية الفكر تعكس مفاهيم التلاحم والحب والاخوة

النتائج :

1. تأثير الفكر الصوفى فى الاسلام بعوامل عدة كالحروب الداخلية والثورات والفتن شكلته وبلورته بصورة ذاتية خاصة .
2. من الافكار التى يتبناها التصوف فى الاسلام فكرة فناء وجود العبد المعنوى فى بحر الوجود المطلق .
3. هناك علاقة حتمية بين التصوف والجمال فالمتصوفة يرون أن الصورة الجميلة تدل على جمال الحقيقة الالهية وتشير إليها .
4. التصوف والفن كلاهما من مفردات عالم الوجدان فكلاهما يبحث عن الجوهر الداخلى والحقيقة المطلقة وكلاهما تجربة ذاتية للوصول فى ادائها الى تحقيق الشكل الجوهرى الذى يمثل المضمون .
5. أثر الفكر الصوفى فى الاسلام على طبيعة وروح الفن الاسلامى بشكل مباشر تظهر بصمته فى شتى مجالات الفنون المرئية والمسموعة والمقروءة .

التوصيات :

1. تكثيف الدراسات البيئية التى توضح أثر التصوف على أشكال الفنون الاخرى والتى لم تشملها الدراسة .
2. الاستفادة من جماليات الاداء الحركى للرقص الصوفى فى الفنون الاسلامية التشكيلية المعاصرة .

مصادر البحث :

أولا المراجع العربية :

1. رايmond ليفشيز - تكايا الدراويش (الصوفية والفنون والعمارة فى تركيا العثمانية) - ترجمة عبلة عودة - هيئة أبو ظبى للثقافة والتراث (كلمة) - الطبعة الاولى - 2011 - ص 19 ، 20.
2. عرفان عبد الحميد - دكتور - نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها - دار الجيل - بيروت - الطبعة الاولى - 1993 - ص 46 ، 49 ، 73 ، 133 ، 140 ، 159 ، 168 ، 186 .
3. عبد الفتاح محمد سيد أحمد - دكتور - التصوف بين الغزالي وابن تيمية - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الاولى - 2000 .
4. محمد شادى - الاداء الحركى بين الفن والمعتقد فى طقوس الدراويش الدوارة (المولوية) - دراسة فى الفولكلور الصوفى - e book - 2009 - ص 102 ، 104 .
5. والتر ستيس - التصوف والفلسفة - ترجمة إمام عبد الفتاح إمام - دكتور - مكتبة مدبولى - القاهرة - الطبعة الاولى - 1999 .

ثانيا المجالات العلمية :

- 6 . إياد محمد حسين ، عامر محمد حسين - الرقص الصوفى ورمزية الحركات الراقصة (المولوية) - بحث منشور - مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية - المجلد 4 - العدد 3 .
7. حسين على شناوة - على شناوة وادى - دكتور - المنظومة الحدسية فى الفن الاسلامى بين التخليى والمنطقى - بحث منشور - مجلة مركز بابل للدراسات الاسلامية - المجلد 4 - العدد 2 - ص 308 ، 310 ، 311 ، 315 .
8. حسين نصر - العلاقة بين الفن والروحانية الاسلاميين - ترجمة طارق عسيلي - بحث إلكترونى - مجلة المعارف الحكمية الالكترونية - معهد الدراسات الدينية والفلسفية .
<http://maarefhekmiya.org/1428/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%86%D9%91-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%AD%D8%A7%D9%86%D9%8A%D9%91/%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7>
9. درقام نادية - الفن والجمال عند الصوفية - بحث منشور - مجلة الكلمة الالكترونية - العدد 76 - السنة 19 - 2012 .

10 . محمود يوسف الشويكى - مفهوم التصوف وأنواعه فى الميزان الشرعى - بحث منشور - مجلة الجامعة الاسلامية - المجلد العاشر - العدد 2 - ص 11 .

11. محمود إسماعيل - إشراقات التصوف فى الفنون الابداعية الاسلامية - بحث إلكترونى - مجلة المعارف الحكمية - معهد الدراسات الدينية والفلسفية - ص 3.

<http://maarefhekmiya.org/2140/%D8%A5%D8%B4%D8%B1%D8%A7%D9%82%D8%A7%D8-AA-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A->

12. ممدوح الشيخ - التصوف والفن من منظور فلسفة الدين - بحث إلكترونى منشور - مجلة المعارف الحكمية - معهد الدراسات الدينية والفلسفية .

<http://maarefhekmiya.org/1137/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%91%D9%81-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%86%D9%91-%D9%85%D9%86-%D9%85%D9%86%D8%B8%D9%88%D8%B1-%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86>

ثالثا المواقع الإلكترونية :

13. حكمت مهدى جبار - التصوف فى الفن - مقال

<http://almothaqaf.com/index.php/qadaya2009/20864.html>

14. سليمة محفوظى - أبعاد التصوف - مقال

<http://www.oudnad.net/spip.php?article350>

15. عثمان نورى طوباش - التصوف والفنون الجميلة - مقال

<http://ar.osmannuritopbas.com>.

رابعا المراجع الاجنبية :

16. The Beauty Of Pure Islam – Dr. Vladimir Antonov – Translated by Mikhail Nikolenko - New Atlantaeans –Canada – 2008 . (إياد محمد حسين ، عامر محمد حسين بلا . نادية 2012) (الشويكى بلا تاريخ) (n.d.نصر) تاريخ) (حسين على شناوة ، على شناوة وادى بلا تاريخ) (إسماعيل بلا تاريخ) (الشيخ بلا تاريخ)